عن أجواء النكبة واحتمالاتها

الثلاثاء 19 مارس 2024 10:05 م

فهمي هويدي
كاتب وصحفي مصري

أفهم قلق الجميع في بلادنا من الأثمان الباهظة التي دفعها الفلسطينيون جراء زلزال السابع من أكتوبر، لكن لديّ عدة تحفّظات على الادعاء بأن ما جرى كان مغامرة غير محسوبة باتت مرشّحة لاستدعاء نكبة جديدة تكرِّر فاجعة عام 1948.

لا أناقش الحزن بل أجده مبررًا؛ لأنني لا أتصور مخلوقًا لم يمُت ضميره لم يغضب ولم يعتصر قلبَه الألم وهو يشاهد الموت والخراب الذي حلّ بغزة وأهلها منذ وقعت الواقعة. إلا أنني أتحفّظ كثيرًا على ما يروّج له البعض بخصوص تكييف ما جرى.

وأزعم أن ثمة أخطاء جسيمة في مقارنة مآلات الحاصل الآن بما أفضت إليه حرب 1948. ولا أجد تشابهًا في الحالتَين إلا في ثلاثة مواضع؛ أولها بشاعة الجرائم الإسرائيلية التي عمدت إلى التنكيل بالفلسطينيين وتهجيرهم بقوة السلاح من مدنهم وقراهم وأرضهم بعد نهبها. الثاني تشابه في دور القوى الدولية؛ لأن بريطانيا كانت وراء إقامة دولة إسرائيل في 1948 (كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني)، في حين أن الولايات المتحدة ظلت شريكة إلى جانب إسرائيل في عدوانها الحالي. وجه الشبه الثالث يتمثل في أن المواجهتين تمّتا على أرض فلسطين وليس خارجها.

***

في المقارنة بين نكبة 1948 وحرب غزة، ينبغي أن ننتبه إلى أنّ الأخيرة بصدد الدخول في شهرها السادس، ومن ثم فإنّ الذين يحذرون من «نكبة» جديدة يرجّحون احتمالًا له شواهده، في حين أن الحرب لا تزال مستمرة ولم تحسم بعد.

ولا يفوتنا أن نسجل ملاحظة شكلية خلاصتها أن حرب 1948 كانت بين جيوش ست دول عربية: (مصر، الأردن، العراق، سوريا، لبنان، السعودية)، في مواجهة مليشيات صهيونية: (البلماخ، الإرجون، الهاجاناه، شتيرن).

أما الحرب الراهنة فهي بين المقاومة الفلسطينية، وفي مقدّمتها حماس والجهاد الإسلامي، وإلى جانبها عناصر من القوى الوطنية الأخرى. وهذه المجموعات تخوض الحرب ضد جيش دولة إسرائيل المدعوم من الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، إضافة إلى بريطانيا وألمانيا، والتي تجاوز كثافة قصفها لغزة حربَي أوكرانيا وسوريا، بل والحرب العالمية الثانية.

الملاحظة الأخرى، هي أن المقاومة الفلسطينية التي يتحدّث البعض عن مغامرتها غير المحسوبة، خرجت من رحم مجتمع ظلّ تحت الحصار طوال سبعة عشر عامًا. هؤلاء المحاصرون قاموا بحفر الأنفاق تحت الأرض بطول يراوح بين 500 و700 كيلومتر، وتدرّبوا في البر والبحر، واستجلبوا سلاحهم وصنعوه، وأقاموا شبكات الاتصال والاستخبارات، مستعينين بخبرات الداخل والخارج في أدقّ التفاصيل وأعقدها.

ذلك كله تم خلال سنوات من الإعداد الهادئ رغم أن كل شيء في القطاع تحت الرقابة ليل نهار، ولإسرائيل في ذلك إمكاناتها بالغة التقدم التي تمولها بها الولايات المتحدة، إضافة إلى طابور جواسيسها وعملائها.

وبعناصرهم تلك فاجؤُوا العدوّ من البَرّ والبحر والجو حتى أفقدوه توازنه ورشده يوم 7 أكتوبر، وهم لا يزالون يقاتلون ويهاجمون ويهددون معاقله منذ قرابة ستة أشهر، الأمر الذي يعني أن الادعاء بإقدامهم على مغامرة غير محسوبة يعد ظلمًا لهم وإجحافًا بحقهم. وإذ اقتضانا الإنصاف أن نقدر جهدهم، فإن الإنصاف يفرض علينا أيضًا أن ننوّه ببسالة وصمود شعب غزة الذي احتضنهم وساندهم وتابعنا على الشاشات تثمينه جهودَهم.

إذا جاز لنا أن نتصارح أكثر في إنصاف الوطنية الفلسطينية، فينبغي أن نعترف بأن أولئك المقاتلين الشجعان رغم الحصار، وتواضع ظروفهم وإمكاناتهم، أبلوا بلاء حسنًا طوال الأشهر الستة، على نحو فاقَ ما حقّقته ستة جيوش عربية في 1948، في حين أن غيرهم تعرّض للانهيار في ستّ ساعات.

***

ما زلت عند رأيي الذي حذّرت فيه من إطلاق الأحكام أثناء احتدام المعركة؛ لأن تحقيق الإنجاز أثناء القتال لا يكفي في التقييم السليم، إذ يظل واردًا أن تكسب جولة في المعركة، لكنك تخسر الحرب في نهاية المطاف.

لـذلك يتعيّن انتهـاء القتـال والتعرف إلى الآثـار العسـكرية والسياسـية الـتي تـترتّب على حصـيلته، إذ هي الـتي يمكـن أن تحـدد الكاسـب والخاسر مع ذلـك فـإن الـذي حـدث في السـابع من أكتوبر، كـانت له أصـداؤه الجانبيـة المهمـة في المجالين: السياسـي والعام، التي يمكن احتسابها ضمن الأهداف التي حققتها المفاجأة الفلسطينية

وهي التي لا أملٌ من التنبيه إليها كاسـتعادة القضـية الفلسـطينية من غياهب النسـيان الذى كاد يطمس معالمها بمضـي الوقت، وسـقوط أسـطورة القوة التي لا تقهر، وانكشاف الجرائم الإسـرائيلية أمام الرأي العام العالمي، وافتضاحها أمام محكمـة العـدل الدوليـة لأوّل مرّة، التي وافقت على دعوى ضلوعها في جريمـة كـل الجرائم وهي جريمـة الإبادة التي قـدّمتها جنوب إفريقيا، وتضامنت معها دول أخرى (ليس من بينها دول عربية للأسف).

في الوقت ذاته فعملية "طوفان الأقصـى" أظهرت أيضًا التصدّعات الداخلية في المجتمع الإسـرائيلي بين العسكريين والسياسيين من ناحية، والعلمـانيين والمتطرفين الـذين يصـفونهم بالأصوليين من ناحيـة أخرى، أمـام تـداعيات الصدمـة الوجوديـة لإسـرائيل والتي أثارتها المقاومة الفلسطينية

***

خلاصـة مـا سـبق أن لـدينا زاويـتَين للنظر فيمـا جرى واحـدة ترى المـوت والخراب وتلـوّح بالنكبـة، والثانيـة ترى الصـمود والإنجـاز وتلوّح بـالحلم والأمل الأولى تغذّي شـعورنا بالبؤس والمظلومية والقهر، والثانية توقظ فينا الاعتزاز بالكرامة والحق في الانتماء إلى جنس البشـر الذين ينعمون بالحرية والاستقلال

صحيـح أنه ينبغي ألّا نتجاهـل ونهوّن من شـأن الموت والخراب، رغم أن فداحـة الثمن تفهم كلمـا عزَّ الهـدف في الوقت ذاته، فـإن الإنصاف يفرض عليها أن نرصد بعناية الأهداف التي تحقّقت، مراهنة وأملًا في أنه لا يصحّ في النهاية إلا الصحيح

لا نريـد أن نستسـلم للآلام، أو نتعلق بالأوهـام والأحلام وتسـعفنا في ذلـك القراءة الرصـينة للواقع وهـذه ترشّـح لنـا عـدة خلاصـات، في مقـدمتها أمران: الأول أن الفلسـطينيين يخوضون المعركـة وحـدهم بمعزل عن الأنظمة العربية، الأمر الثاني تمثل في تحييد النظام العربي، ذلك أن الدول العربية لم تسـتخدم شـيئًا من قدراتها سواء لمحاولة وقف الحرب أو الضغط بأي وسيلة لكبح جماح العدوان الإسرائيلي، وهو ما بات يعد نقطة ضعف في الموقف الفلسطيني سياسيًا أو اقتصاديًا أو دبلوماسيًا

أمـا الخلاصـة فهي أن المقاومـة الفلسـطينية لا تـزال ثابتـة القـدم، تملـك بعض أوراق القـوة الـتي تمكّنهـا مـن تحـدي الإرادة الإسـرائيلية المدعومة أمريكيًا، الأمر الذي يعني في مقبل الأيام استبعاد الهزيمة الساحقة للفلسطينيين أو الانتصار الكاسح لإسرائيل

فالقتل والتـدمير والتهجير لن يلغي الحُلم الفلسـطيني الـذي ازداد رسوخًا وقوة والعربدة الإسـرائيلية – وتوسع المسـتوطنين – لها حدود، وما عاد ميسورًا تسويقها بعدما تفتّحت أعين كثيرين في العالم على حقيقتها

***

لا مفرّ من الاعتراف بـأن الأمر اختلف كثيرًا منـذ 1948. وطوال السـنوات التي خلت ظلّت الوطنيـة الفلسـطينية تحـاول القيـام بمـا عليها تحت مختلف الظروف حتى كان "طوفان الأقصـى" أحـدث تجلّياتها وإذا كانت نكبة 1948 قد حدثت في ظل الحضور العربي الرمزي، فإن اسـتعادة الحـديث عنهـا في الـوقت الراهـن تـدعونا إلى التفكير بشـكل جـادّ في مـدى مسؤوليـة الغيـاب أو الخـذلان العربي عـن ذلـك الـذي لا نتميّزاه، ونستعيذ بالله من شرّه